

﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: 120]

❁ مُنَاسِبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا بَيَّنَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ إِصْرَارَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَتَصْمِيمَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ مَعَ ظُهُورِ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى حَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ وَالْحُجْجِ السَّاطِعَةِ عَلَى صِدْقِ نَبْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ اسْتِمْسَاكَهُمْ بِالْكَفْرِ وَالْعِنَادِ وَشِدَّةَ تَكْذِيبِهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى دَرَجَةِ أَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ حَتَّى يَرْضُوا عَنْهُ.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿تَرْضَى﴾: فَعْلٌ مُضَارِعٌ، الْجَذْرُ اللَّغْوِيُّ مِنْهُ (رَضِيَ)، حَصَلَ إِعْلَالٌ فِي الْيَاءِ، فَقَلْبَتْ أَلْفًا، وَقَسَمَ يَرَى أَنْ آخِرَهُ وَاوْ، فَيَكُونُ جَذْرُهُ (رَضُو)، وَالْأَصْلُ فِيهِ أَنْ "يَدُلَّ عَلَى خِلَافِ السُّخْطِ، تَقُولُ: رَضِيَ يَرْضَى رَضًى، وَهُوَ رَاضٍ" (1).
 "وَرِضَا الْعَبْدِ عَنِ اللَّهِ: أَنْ لَا يَكْرَهُ مَا يَجْرِي بِهِ قَضَاؤُهُ، وَرِضَا اللَّهِ عَنِ الْعَبْدِ: هُوَ أَنْ يَرَاهُ مُؤْتَمِرًا لِأَمْرِهِ، وَمُنْتَهِيًّا عَنْ نَهْيِهِ" (2).
 وَالْمَعْنَى الْمَحْوَرِي لِلرِّضَا: هُوَ "تَشَبُّعُ النَّفْسِ وَامْتِلَاؤُهَا بِلَا لَأَ وَرَقَّةٍ نَحْوِ شَيْءٍ" (3) وَعِلَاقَتُهُ بِالْمَعْنَى: ارْتِيَا حِ النَّفْسِ وَاغْتِبَاطُهَا.
 وَالْمَعْنَى فِي الْآيَةِ: أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَنْ يَرْضُوا عَنْكَ حَتَّى تَكُونَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا كُلٌّ بِحَسَبِ أَمْنِيَّتِهِ.

(2) ﴿تَتَّبِعَ﴾: فَعْلٌ مُضَارِعٌ مُزِيدٌ، وَزَنُهُ (تَفْتَعِلُ)، وَجَذْرُهُ اللَّغْوِيُّ (تَبِعَ)، وَلَهُ "أَصْلُ

(1) ابْنُ فَارَسٍ، مَقَابِيسُ اللَّغَةِ: (رَضِيَ).

(2) الرَّائِبُ، لِلْفُرْدَاتِ: (رَضِيَ).

(3) جَبَلٌ، لِلْعَجْمِ الْاِشْتِقَاقِي لِلْوُصْلِ: (رَضِيَ).

واحد لا يشدُّ عنه من الباب شيء، وهو التلُّو والقُفُو، يقال: تبعْت فلاناً؛ إذا تلوته، وأتبعته، وأتبعته: إذا لحقته⁽¹⁾.

وليس لزوماً أن يكون الاتِّباع بالجسم والمادة، فإنَّه قد يكون "بالارتسام والائتمار"⁽²⁾، كاتِّباع القرآن، فإنَّه قُفُوٌ معنويٌّ، فمن اتَّبَعَ القرآن "اتَّعَمَّ به، وعمل بما فيه، كأنَّ القرآن أَمَامَهُ، وهو يَتَّبِعُهُ، وَيَنْهِيَّ بهيئته التي يرسمها"⁽³⁾. والاتِّباع في الآية أن تقفُو ديانتهم "في فَهْمِهَا وَصُورِ الْعَمَلِ بِهَا، حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُمْ أَذْنَى. اسْتِقْلَالٍ فِي دِينِهِمْ وَلَا فِي أَنْفُسِهِمْ"⁽⁴⁾ أي: أن يكون المتَّبَع يهودياً أو نصرانياً حَتَّى ينال رضاهم.

(3) ﴿مِلَّتَهُمْ﴾: اسم جذره اللغوي (ملل)، ويجوز من (ملو)، وأصله "يدُلُّ على امتدادٍ في شيءٍ: زمانٍ أو غيره"⁽⁵⁾. ومنه أيضاً إملاء الكتاب، "ويُقال: أَمَلَّ عَلَيْهِ شَيْئاً يَكْتُبُهُ، وَأَمَلَى عَلَيْهِ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِاللُّغَتَيْنِ"⁽⁶⁾، ومنه قوله تعالى ﴿فَلْيُمْلِلْ رَبُّهُ﴾ [البقرة: 282]. والمِلَّةُ "لا تكاد توجد مضافة إلى الله، ولا إلى آحاد أُمَّة النَّبِيِّ ﷺ، ولا تستعمل إلا في جملة الشَّرَائِعِ دون أحادها"⁽⁷⁾.

ومعناها: "الشريعة والدِّين: شريعة تُمَدُّ، وَيَزَوَّدُ بها لإصلاح حال الخلق ومآلهم"⁽⁸⁾، "وهي مجموع عقائد وأعمال يلتزمها طائفة من الناس يتفقون عليها، وتكون جامعة لهم كطريقة يتبعونها"⁽⁹⁾، وقد أضافها في الآية إلى الضمير العائد على اليهود والنصارى.

(4) ﴿فَلَّ﴾: فَعَلَ أَمَرَ، أصل حروفه (قول)، حصل فيه إعلال؛ إذ قلبت الواو ألفاً،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).

(2) الراغب، المفردات: (تبع).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي للؤصل: (تبع).

(4) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/95.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملل).

(6) الأزهرى، تهذيب اللغة: (ملل).

(7) الراغب، المفردات: (ملل).

(8) جبل، المعجم الاشتقاقي للؤصل: (ملل).

(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/693.

والأصل في معنى حروفه: "القولُ مَنْ النطق، يقالُ قالَ يقولُ قولاً، والمقولُ اللسانُ، ورجلٌ قولُهُ وقولٌ: كثيرُ القولِ"⁽¹⁾، ويطلق القول على الكلام أيضاً⁽²⁾، ومن أظهر استعمالات القول: "أن يكون للمركَّب من الحروف المبرز بالنطق، مفرداً كان أو جملة"⁽³⁾، وهناك استعمالات أخرى للقول، كالتَّصور النفسي والاعتقاد، والدلالة على شيء، والعناية الصادقة بالشيء، وكذلك الحد والإلهام⁽⁴⁾.

وقد ورد الأمر ﴿قُلْ﴾ ثلاثمائة واثنين وثلاثين (332) مرة في القرآن الكريم؛ "لإِسناد كلِّ ما في القرآن إلى الله ﷻ دعماً للرسول ﷺ، وحسماً لطمع الكفار في الهوادة"⁽⁵⁾، وهذا الموضع من تلك المواضع الكثيرة بهذا المعنى.

(5) ﴿هُدًى﴾: مصدر للفعل الثلاثي هدى يهدي، وجذره اللغوي من (هدي)، ومعناه: يقوم على أصلين: أحدهما "التقدُّم للإرشاد، والآخَر بَعثة لَطَف"⁽⁶⁾، وهما متقاربان في معناه؛ لذلك فقد ذكر الراغب في معنى الهدى "الهداية دلالةً بلطف"⁽⁷⁾.

و﴿هُدًى اللَّهِ﴾ المذكور في الآية هو بمعناه الاصطلاحي، وهو هداية الله تعالى للإنسان، وقد جعله الراغب على عدَّة أقسام: "الهداية التي عمَّ بجنسها كلَّ مكلف ... والهداية التي جعل للناس بدعائه إيَّاهم على أسنة الأنبياء ... والتَّوفيقُ الذي يختصُّ به من اهتدى ... والهداية في الآخرة إلى الجنة"⁽⁸⁾.

ومعنى ﴿هُدًى اللَّهِ﴾ في الآية، "يعني: أن هدى الله الذي هو الإسلام، هو الهدى بالحق، والذي يصحُّ أن يسمَّى هدى، وهو الهدى كله ليس وراءه هدى"⁽⁹⁾.

(6) ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾: جمعُ تكسير مفردة هَوَى، والجذر اللغوي له: (هوى)، ومعناه: "أصلُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قول).

(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (قول).

(3) الراغب، المفردات: (قول).

(4) الراغب، المفردات: (قول).

(5) جبل، للعجم الاشتقاق للوصل: (قول).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).

(7) الراغب، المفردات: (هدي).

(8) للرجع السابق: (هدي).

(9) الزمخشري، الكشاف: 1/316.

صحيح يدلُّ على خلُو وسقوط، أصله الهواء بين الأرض والسماء، سَمِّي لخلوه، قالوا: وكلُّ خالٍ هواءٌ⁽¹⁾.

”وأما الهوى: هوى النفس، فمن المعنيين جميعاً؛ لأنَّه خالٍ من كلِّ خير، ويهوي بصاحبه فيما لا ينبغي“⁽²⁾.

والهوى بمعناه العام الوارد في القرآن الكريم: ”ميل النفس إلى الشهوة، ويقال ذلك: للنفس المائلة إلى الشهوة، وقيل: سَمِّي بذلك؛ لأنَّه يَهْوِي بصاحبه في الدنيا إلى كلِّ داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية“⁽³⁾.

(7) ﴿جَاءَكَ﴾: فعل ماضٍ، مضارعه يجيء، الجذر اللغوي منه (جيء)، والأصل فيه ”انحدار إلى حيزٍ أو تجوُّف سُفلي مُهيَّأ جامع: كالماء في الهبطة“⁽⁴⁾.

”ومن هذا المعنى المجيء: الإتيان، إذ هو حضور الجائي من حيث كان إلى مكان (حيزٍ) للقاء أو لأمر“⁽⁵⁾.

ومجيء العلم في الآية، ”أي: المعلوم، وهو الوحي أو الدين؛ لأنَّه الذي يتصف بالمجيء دون العلم نفسه، ولك أن تفسِّر المجيء بالحصول، فيجري العلم على ظاهره“⁽⁶⁾.

(8) ﴿الْعِلْمُ﴾: اسم ثلاثي، وهو مصدر عِلِمَ يَعْلَمُ، وأصل حروفه (علم)، وله ”أصل صحيح واحد، يدلُّ على أثر بالشيء، يتميِّز به من غيره، من ذلك العلامة“⁽⁷⁾، ومن معانيه أنَّه ”ضدُّ الجَهْل، رجل عالم من قوم عُلَماء وعالمين، وأعلام القوم ساداتهم، ومَعالم الدين: دلائله“⁽⁸⁾.

و(العلم) بمعناه الاصطلاحي: ”إدراكُ الشيء بحقيقته، وذلك ضربان: أحدهما:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هوي).

(2) للصدر السابق: (هوي).

(3) الراغب، المفردات: (هوى).

(4) جبل، المعجم الاشتقاقي للؤصل: (جيء).

(5) جبل، المعجم الاشتقاقي للؤصل: (جيء).

(6) الألوسي، روح اللعاني: 1/372.

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علم).

(8) ابن دريد، جمهرة اللغة: (علم).

إدراك ذات الشيء، والثاني: الحكم على الشيء بوجود شيء، هو موجود له، أو نفي شيء، هو منفي عنه⁽¹⁾.

والعلم يدل أيضاً على "اليقين"، يُقَالُ: عَلِمَ يَعْلَمُ؛ إِذَا تَيَقَّنَ، وَجَاءَ بِمَعْنَى: الْمَعْرِفَةِ أَيْضًا، كَمَا جَاءَتْ بِمَعْنَاهُ: ضَمَّنَ كُلَّ وَاحِدٍ مَعْنَى الْآخِرِ لِاشْتِرَاكِهَمَا فِي كَوْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مَسْبُوقًا بِالْجَهْلِ⁽²⁾.

ومعنى قوله: ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ "أي: من الدين المعلوم صحته بالدلائل القاطعة"⁽³⁾.

✽ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِي:

استهلال الآية بعدم رضا اليهود ولا النصارى: قَوْلُ فَصَّلْ مَشُوبٌ بِلَهْجَةِ تَيْئِسٍ لَهُ ﷺ من طمعه في إسلامهم، فَعَلَّقَ رِضَاهُمْ عَلَى اتِّبَاعِهِ ﷺ مَلَّتَهُمْ، فَكَلَّمَ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يَرِيدُ أَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ ﷺ مَلَّتَهُمْ، وَهُوَ أَمْرٌ مُسْتَحِيلٌ إِمَّا كَانَهُ، وَكَأَنَّ مَلَّتَهُمْ هِيَ الْهَدْيُ!!، فَردَّ عَلَيْهِمُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِأَنَّ الْهَدْيَ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَتَّبَعَ: هُوَ هُدَاهُ تَعَالَى الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسَلِهِ، وَلَيْسَ الْهَوَى وَالتَّشْهِي، وَأَنَّكَ إِنْ اتَّبَعْتَهُمْ - وَقَدْ جَاءَكَ الْعِلْمُ - "فَاللَّهُ لَا يَنْصُرُكَ، وَلَا يَسَاعِدُكَ عَلَى ذَلِكَ؛ إِذْ إِنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى لَا يَكُونُ طَرِيقًا مُوَصِّلًا إِلَى الْهَدْيِ، وَإِذَا لَمْ يَنْصُرْكَ اللَّهُ، وَيَتَوَلَّ شَأْنُوكَ؛ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكَ مِنْ بَعْدِهِ؟"⁽⁴⁾، وَهَذَا الْخَطَابُ وَإِنْ كَانَ خَاصًّا بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَهُوَ مُوجَّهٌ إِلَى الْأُمَّةِ عَامَّةً.

✽ الْإِيضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالتَّبْلَاغِيُّ:

نفي الرضا بأداة (لن) بيان للحاضر واستشراف للمستقبل	سِرُّ التعبير عن نفي رضا اليهود والنصارى بأداة ﴿وَلَنْ﴾: التعبير بأداة لن في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى﴾، له دلالة، وهي أنّ رضاهم غير حاصل عنه ﷺ لا في الحاضر ولا في المستقبل؛ لأنَّ ﴿وَلَنْ﴾ تخلص الفعل للاستقبال، ففي الآية استشرافٌ لمستقبل اليهود والنصارى،
--	--

(1) الراغب، للفردات: (علم).

(2) الفيومي، للصباح النير: (علم).

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 4/34.

(4) الرازي، تفسير الرازي: 1/204.

وموقفهم من هذه الأمة ونبيها إلى أن تقوم الساعة؛ فليس الأمر مقصوراً على زمنه ﷺ، ولا على العصر الأول؛ بل ذلك ممتدٌ إلى قيام الساعة، فلا يُرضيهم إلا "ترك ما أنت عليه من الإسلام واتباعهم" (1).

سِرُّ تعديّة الفعل (تَرْضَى) بحرف (عن):

يتعدّى الفعل (رَضِيَ) بنفسه؛ كقوله تعالى: ﴿لِيَدْخُلَنَّهُمْ مِثْلَ بَرٍّ رِضْوَانًا﴾ [الحج: 59]؛ فإنه يشير إلى عموم الرضا، ومعناه قبول النفس للشيء قبولاً تاماً، ويتعدّى بالحرف مثل: (عن) و(الباء) و(اللام)؛ من مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ﴾ [التوبة: 83]، وله معنى خاص في كل حالة؛ فإن تعدّى بحرف (الباء)؛ فإنه يُستخدم في الأعم الأغلب في الرضا عن الأمور التي تكون في حكم الوسائل لا الغايات، وأيضاً يشير إلى أن الرضا متعلق بشيء خاص محدّد، نحو قوله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِأَلْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: 7]، وإن تعدّى بحرف (اللام)؛ دلّ على الاختصاص والتعليل؛ كما في قوله: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [النمل: 7].

أما إذا تعدّى بحرف (عن)؛ فإنه يُشير إلى أسباب صدرت من المَرْضِي أدّت إلى شعور الرضا، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: 18]، حيث جاء تعليله بعد ذلك مباشرة في قوله: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: 18]، وعلى ذلك جاء تعدّي الفعل هنا بـ(عن): ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ﴾؛ للدلالة على وجود أسباب تؤدي إلى الرضا إن فعلت، وهي: ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، وأنّى لهم ذلك من رسول الله ﷺ، ومن أمته الصادقة في متابعتها في الأمر كله.

خطابُ النبي ﷺ في قوله: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ﴾ خطاباً لأُمته:

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ﴾ "آيَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَاشِفَةٌ عَنْ حَالِ أَهْلِ الْمِلَّتَيْنِ فِي عَصْرِهِ، وَلَا تَزَالُ مُطَرِّدَةً فِي أَمْتِهِ مِنْ بَعْدِهِ" (2)،

الرّضا مرهونٌ
بأُتباعِ اللّٰه، وإلّا
فسخِطَ دائِمٌ،
وشَرَّ حائِمٌ

بناء قيمة الاقتداء
لدى الأُمّة في
نظم الخطاب

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/345.

(2) محمد رشيد رضا، تفسير النار: 1/95.

فالخطاب في ظاهره موجه للرسول ﷺ بدلالة ﴿عَنكَ﴾، إلا أنه موجه للأمة جميعاً بطريق الإشارة والإيماء، أي: أنكم مهما فعلتم؛ فلن تجدوا رضا ولا قبولاً لديهم.

نكتة تقديم اليهود على النصارى:

قَدْ ذُكِرَ اليهود على النصارى في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾ في بيان عدم رضاهم عنه ﷺ وعن أمته؛ إشعاراً بـ "أنَّ تَصَلَّبَ اليهود في أمثال هذه العظائم أشدَّ من النصارى"⁽¹⁾، وحالهم هذا غالب في القرآن الكريم، وأيضاً لتقدّمهم الزمني، فهم أسبق زماناً ورسالةً.

نكتة إيراد ﴿وَلَا﴾ النافية قبل ﴿النَّصَارَى﴾:

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾ نفي فعل الرضى بـ (لن) النافية، وجاء فاعلها اليهود، ثم عطف عليه النصارى، ولم يكرّر أداة (لن) مع فعل ﴿تَرْضَى﴾؛ فيكون التقدير: (ولن ترضى عنك النصارى)؛ لأنَّ "العطف على نيّة تكرار العامل"⁽²⁾، وجاء بـ: (لا) النافية المؤكّدة للنفي الأول بلن؛ تلميحاً بـ "بأنّ رضى كلٍّ منهما مباين لرضى الأخرى، أي: لن ترضى عنك اليهود، ولو خَلِيتَهُمْ وشأنَهُمْ حتّى تَتَّبِعَ ملَّتَهُمْ، ولا النصارى، ولو تركتَهُمْ ودينَهُمْ حتّى تتبع ملَّتَهُمْ"⁽³⁾؛ فأفاد إيراد (لا) التباين بين رضى اليهود ورضى النصارى، وأنَّ كلَّ فئة مستقلة عن الأخرى في عداوتها، وفيه تبيّن أيضاً؛ لأنَّك "لو صادفت رضا اليهود؛ فلن ترضى عنك النصارى، وإن صادفت رضا النصارى؛ فلن ترضى عنك اليهود"⁽⁴⁾.

بيان شدّة
عداوة اليهود،
وتقدّمهم
الزمني

بيان اشتراك
الفريقين في
أصل العداوة لا
ينفي استقلال
كل فريق بعداوة
خاصّة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/247.

(2) ابن عقيل، شرح ابن عقيل: 2/208.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/247.

(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/561.

تنبيه القرآن على
نوع العداوة،
يُهيئ بالمؤمنين
الحدّز بحسب
الخطر

نكتة تفصيل ذكر أهل الكتاب باليهود والنصارى:

جاء التعبير عن أهل الكتاب باليهود والنصارى تفصيلاً، فلم يقل: أهل الكتاب؛ ذلك أن عداوة اليهود أشد من النصارى؛ فلو عبّر بأهل الكتاب؛ لأفاد عموم الحكم، وهو غير مراد في هذا السياق، إذ المراد تنبيه المؤمنين على وجود فوارق في عداوتهم، وبين الفريقين قواسم مشتركة، منها: أنهم أهل كتاب، وأنهم من بني إسرائيل، واشتراكهم في بعض المعتقدات الباطلة؛ كادعاء النبوة لله، ودعواهم نفي دخول غيرهم الجنة، واشتراكهم في بعض الصفات المذمومة؛ ككتمانهم نبوته ﷺ، وكفرهم بها.

سر اختيار ﴿حَتَّى﴾ دون (إلى) مع اشتراكهما في الغاية:

اختار النظم الكريم استعمال ﴿حَتَّى﴾ دون (إلى)؛ ذلك أن ما بعد ﴿حَتَّى﴾ يدخل فيما قبلها، بخلاف (إلى) فلا يلزم ذلك، مثل قوله ﷺ: "كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ" (1)، وهما داخلان، ولذلك أثر القرآن استعمال ﴿حَتَّى﴾ لدخول ما بعدها، وهو اتباع ملّتهم طلباً للرّضا، وعليه فقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ فيه كبير تبيين وتبديد "من أتباع اليهود والنصارى لشريعة الإسلام يومئذ؛ لأنهم إذا كانوا لا يرضون إلا باتباعه ملّتهم؛ فهم لا يتبعون ملّته" (2)، فاتّباع النبي للمّتهم مستحيل، وهو على طريقة: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40].

فائدة اختيار الفعل ﴿تَتَّبِعَ﴾ دون غيره من الأفعال:

أثر القرآن الكريم استعمال فعل ﴿تَتَّبِعَ﴾ دون غيره من الأفعال؛ لدلالته على كمال الانقياد والاستسلام والمداومة والاستمرار، فهم يريدون اتباعه لهم في أقوالهم وأفعالهم وشرائعهم خطوة بخطوة،

مطلوب اليهود
والنصارى خدمة
مصالحهم لا
التشارك الثقافي

(1) صحيح مسلم: 4/2045.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/693.

ويريدون ذلك من أُمَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فهم يريدون تحقيقَ مصالحهم، ولا ينظرون لشيءٍ دون ذلك مطلقاً وإن زعموا وادَّعوا، ولا يغترُّ بهم إلا من حادَّ عن الحقِّ وجارَ على أهله.

نكتة إفراء الملة وإضافتها لليهود والنصارى:

أُفردتِ الملة مع أنَّ اليهود والنصارى فريقان؛ لأنَّهما يجمعهما الكفرُ باعتبارِه قاسماً مشتركاً، وهو ملة واحدة، ولأنَّهم لمَّا اشتركوا في التحريف والكتمان صاروا بمنزلة واحدة، وأضافها إليهم لإفادة التحريف والفساد، وأنَّهم شرَّعوا ببيغهم ما لم يأذن به الله، وفي هذا دلالة على أنَّها من صنْعهم وباطلهم.

ملة الكفر واحدة

سر التعبير بالقصر في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾:

أفاد هذا الأسلوب كثيراً من المعاني في الردِّ على اليهود والنصارى في عدم رضاهم عن النبي ﷺ وعن شريعته وأُمَّته، ومن هذه المعاني: أنَّ هدى الله هو ما يقدره للشخص من التوفيق، أي: قل لهم: لا أملك لكم هدى إلا أن يهديكم الله، فالقصر هنا قصر حقيقي. وأنَّ المراد بهدى الله الذي أنزله هو القرآن، وفي هذا إبطالُ لعلِّهم وغرورهم بأنَّ ما هم عليه هو الهدى، وأنَّ ما خالفه ضلال، فالقصر للقلب.

إسناد الهدى
إلى الله على
الحقيقة، وأنَّه
بتوقيفه ورضاه

والدلالة على أنَّ القرآن هو الهدى الكامل في الهداية بخلاف هدى غيره من الكتب فهي غير كاملة.

دلالة إضافة لفظ ﴿هُدَى﴾ إلى لفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾:

إضافة ﴿هُدَى﴾ إلى لفظ الجلالة أفاد التشريف، والتحقير لمن هو على خلافه، وتدلُّ على أنَّ الهدى من غير وحي السماء ضلالٌ لا قيمة له، وأيضا تدلُّ على أنَّ أتباع اليهود والنصارى ليس بهدى؛ بل هو الضلال المبين.

توالي المؤكّدات
إشارة إلى أنّ
هدى الله هو
الحقيق بالاتباع

فائدة تعدّد المؤكّدات في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾:

في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ تواتت فيه المؤكّدات، وهو سياقٌ في تعريف الهدى الذي يجب أن يكون خليقاً بالإنسان المؤمن، وقد ابتدأ الجملة بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾؛ لينبّه على أهميّة ما سيأتي من كلام، ثمّ جاء بالحرف المؤكّد ﴿إِنَّ﴾؛ "لتحقيق الخبر وتحقيق نسبته وإبطال تردّد المتردّد"⁽¹⁾، ثمّ جاء بالجملة الاسميّة الدالّة على الثبوت، وجاء الاسم معرفة بإضافته إلى اسم الجلالة ﴿اللَّهُ﴾؛ لأنّه الاسم العلم الجامع لسائر الصّفات، ولإدخال المهابة في نفوس السامعين.

وفي قوله: ﴿هُوَ الْهُدَى﴾، ﴿هُوَ﴾: يجوز أن يكون ضمير فصل⁽²⁾، وغالب حاله لإفادة الاختصاص والتّوكيد، ثمّ عرّف الخبر ﴿الْهُدَى﴾ بالألف واللام، وهذا يقتضي كمال المعنى من جهة تعريف جزأي الجملة فضلاً عن توكيدها بضمير الفصل.

توجيه التّشابه اللفظي:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾، وقال في آل عمران: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 73] بتقديم ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ في الأول، وتأخيرها في الثاني، وسرّ ذلك أنّ الذي في البقرة هورّد على اليهود والنّصارى في زعمهم أنّهم على الحقّ والهدى، فردّ عليهم بأن جعل هدى الله هو الهدى الحقّ، فهو قصر قلبٍ لاعتقادهم، وردّ عليهم، بخلاف ما جاءت عليه آية آل عمران التي تأخّر فيها اللفظ بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ "فلأنّ القوم هنا لم يبدؤ منهم إنكار، أو دعوى استثنائهم بالهدى، فتعريف الهدى بالألف واللام، وجعله موضوعاً للحديث، والحكم عليه بأنّه ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ هو التعبير الأنسب للمقام لما في (ال) من معنى الاستغراق"⁽³⁾، ففي هذا الأسلوب قصر أفراد.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/694.

(2) العكبري، التبيان: 2/93.

(3) العكبري، التبيان: 2/154.

بلادة مجيء الشرط ماضياً مع (إن):

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَتَبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ﴾ هنا جاء الشرط بـ (إن) مع كون فعل الشرط ماضياً، والقياس فيه أن يكون مضارعاً؛ لأنَّ حصوله يكون في الاستقبال، فيمتنع مضيّه وثبوته، والغرض من الماضي التعريض بمن يتَّبَع الهوى، وهو مستحيل في حقِّه ﷺ، وهذا الأسلوب أبلغ من التصريح، فإذا كان محمد ﷺ - وهو الحبيب المقرب - يتَّبَع أهواءهم؛ فكيف بغيره؟ فهو أسلوب أكثر فعلاً في النفوس وأعطف لها، "ويعين على قبوله؛ لكونه أدخل في أمحاض النَّصَح لهم، حيث لا يريد لهم إلَّا ما يريد لنفسه"⁽¹⁾، وهذا سرُّ استعمال (إن) دون (إذا)، فـ (إن) لا يقتضي تحقُّق الوقوع، فهو يدلُّ على أنَّ اتِّباع أهوائهم غير متوقَّع منه؛ لأنَّ من سنن الله تأييد متَّبَع الهدى السماوي الصحيح بالنصر والغلبة.

نكتة التعبير بالأهواء وجمعها:

عبَّر عن دينهم وملَّتْهم بالأهواء للدلالة على أنَّ ما ينتسبون إليه ويدعون له هوى، وليس شرعاً؛ لأنَّ ما شرعه الله على لسان أنبيائه موسى وعيسى ﷺ، قد غيَّروا فيه، وبدَّلوا حسب أهوائهم، وفيه ردُّ عليهم في أنَّ ملَّتْهم ليست جامعةً للهدى بل هي محرِّفةٌ وناشئةٌ عن شهوة الرئاسة، وليس عن دليل.

وعبَّر بالجمع، "ولم يقل: هواهم؛ لأنَّ جميع الفرق ممن خالف النبي ﷺ لم يكن ليرضيهم منه إلَّا اتِّباع هواهم"⁽²⁾، لبيان أنَّ أهواءهم متفرِّقةٌ غيرُ مجتمعة، وهذا حال الباطل، ولأنَّ الهوى "رأي ناشئ عن شهوة لا عن دليل ... فشملت أهواؤهم التكذيب بالنبي ﷺ وبالقرآن، واعتقادهم أنَّ ملَّتْهم لا ينقضها شرع آخر"⁽³⁾.

التعريض
بمتَّبَعِي أهواء
أهل الكتاب

أهواء الأنفس
هي أصل
الباطل،
وجمعها دليل
شتاتها

(1) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/124.

(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/202.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/694.

فائدة التعبير بالعلم دون غيره من الألفاظ:

في قوله تعالى: ﴿جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، ﴿الْعِلْمِ﴾: مصدر، وهو الأصل، والتعبير به من إطلاق المصدر ﴿الْعِلْمِ﴾ وإرادة المفعول (المعلوم)، وهو من باب المجاز المرسل، وغايته تفخيم الأمر، فكأنه قد جاءه العلم كل العلم؛ لأن المصدر يمثل الحدث المجرد، لاتساع دلالته لتشمل كل ما هو معلوم بالأدلة والبراهين الساطعة، وليبين أن ما جاءه هو العلم المقابل للجهل، ففيه تعريضٌ بهم، وبما يدعون إليه من الباطل.

سر حذف جواب الشرط:

حذف جواب الشرط في قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ لاستبعاد وقوع ذلك، فله حكم المعدوم، وحذفه من اللسان دليل على حذفه من الفؤاد، ولمزيد تهويل ووعيد شديد لمن تسول له نفسه إرضاء اليهود والنصارى؛ لأن رضاهم دليل على خروجه من الملة.

توجيه المتشابه اللفظي:

جاء في هذه الآية قوله: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، وجاء في السورة نفسها: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [البقرة: 145].

فيُسأل عن سر اختيار ﴿الَّذِي﴾ في الموضع الأول، و﴿مَا﴾ في الموضع الثاني؟ ويُسأل عن سر خلو الموضع الأول من ﴿مِّنْ﴾، ودخولها في الموضع الثاني؟

أما الجواب عن السؤال الأول:

فقوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ جاء بالاسم الموصول ﴿الَّذِي﴾ فيما جاء في موضع آخر بـ﴿مَا﴾، كقوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [البقرة: 145]، وقد أجاب الغرناطي بقوله: "بأن ﴿الَّذِي﴾ لا تفارق الموصولية، فهي

التَّعْرِيفُ
بأصحاب الأهواء
بأنهم على جهل

استبعاد أتباع
أهل الكتاب من
قبل المؤمنين،
وتهويل لمن زلَّ
في ذلك

كأنَّها أَعْرَقَ في التعريف من ﴿مَا﴾؛ لخروج ﴿مَا﴾ عن الموصولية، حيث إنَّها تكون حال اسميتها شرطاً واستفهاماً، ولا يفارقها العموم والإطلاق في هذين الموضعين⁽¹⁾.

و"لأنَّ العلم في الآية الأولى علم بالكمال، وَلَيْسَ وَرَاءَهُ علم؛ لأنَّ مَعْنَاهُ بعد الَّذِي جَاءَكَ من العلم بِاللَّهِ وَصِفَاتِهِ ... فَكَانَ لفظ ﴿الَّذِي﴾ أُلِيقَ بِهِ من لفظ ﴿مَا﴾؛ لِأَنَّهُ في التَّعْرِيفِ أبلغ، وَفِي الوُصْفِ أقعد"⁽²⁾.

ومن أسرار هذا التعبير: أنَّ الآية الأولى الوارد فيها ﴿الَّذِي﴾ مناسب للإطناب الوارد قبله، فقد ذكر في البقرة "عدة آيات في بسط أحوالهم وقبيح مرتكباتهم"⁽³⁾ من لدن قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: 109] حتَّى هذه الآية ذكر فيها كثيراً من مرتكباتهم وأحوالهم القبيحة في نحو عشر آيات أو أقل قليلاً.

أمَّا الآية الثانية؛ فهي متعلِّقة بإبطال قبلة اليهود والنصارى؛ لأنَّها مسبوقه ببيان ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: 142] والآية في أمر القبلة، وهو تشريع فرعي؛ لذلك جاء التحذير في قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ في أمر اتباع قبلتهم، أمَّا في الآية الأولى؛ فالتحذير جاء من اتباع ملَّتْهم بأسرها، فالمقام مختلف؛ لأنَّ الآية الأولى في بطلان أصول ملَّتْهم، أمَّا الآية الثانية؛ فهي في أمر القبلة؛ لذلك جيء فيها التعبير بـ ﴿مَا﴾، وهي مُلْحَقَةٌ بالمعارف؛ لأنَّها في الأصل نكرة موصوفة نُقِلَتْ إلى الموصولية.

وأمَّا الجواب عن السُّؤال الثاني:

فلأنَّ الآية التي دخلت فيها ﴿مِنْ﴾ جاءت بعد الآية الأولى في هذه السورة، وليس بينهما فصلٌ طويل؛ فكأنَّ العلم الذي جاء فيها من قوله تعالى: ﴿مَا تَبِعُوا قِبَلَتَكَ﴾، هو جُزْئِيٌّ من عموم العلم الذي جاء في إبطال جميع ملَّتْهم، فكان جديراً بأن يُشار إلى كونه جُزْئِيًّا بإيراد ﴿مِنْ﴾ الابتدائية⁽⁴⁾.

(1) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/762.

(2) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 77.

(3) الغرناطي، ملاك التأويل: 1/48.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/39.

لكل ذلك جاءت الألفاظ متناسبة، فذكر ﴿الَّذِي﴾ في الموضع الأول للإطناب الوارد فيها، ولأنه أبلغ وأليق؛ لأنها خالصة في التعريف، بخلاف ﴿مَا﴾ في الموضع الثاني ففيها إيجاز.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ معناه: نفي أن يكون لك حليف أو معين يدفعهم عنك، وفي هذا التعبير "قطع" لأطماعهم أن تتبّع أهواءهم؛ لأن من علم أنه لا ولي له، ولا نصير ينفعه، إذا ارتكب شيئاً؛ كان أبعد في أن لا يرتكبه، وذلك إياس لهم في أن يتبع أهواءهم أحد⁽¹⁾.

سرّ التعبير بحرف الجرّ ﴿مِنْ﴾ في قوله ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾:

عبّر بذلك لتأكيد النفي، ولقطع أمل المنافقين والمُدهنين لليهود والنصارى.

نكتة تقديم ﴿وَلِيٍّ﴾ على ﴿نَصِيرٍ﴾:

قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ جواب القسم، فقد علّق اتباع الهوى بنفي الولي والنصير، وأكد النفي بمن في قوله: ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾؛ لتأكيد النفي، وقدم الولي على النصير احتراساً⁽²⁾؛ لحصول التّكامل بين ولاية الولي، ونصرة النصير؛ "لأن نفي الولي لا يقتضي نفي كل نصير؛ إذ لا يكون لأحد ولي؛ لكونه دخيلاً في قبيلة، ويكون أنصاره من جيرته"⁽³⁾، و(لا) هنا نافية لتوكيد النفي، والتقدير: ما لكم من دون الله من ولي ونصير.

❁ الفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

الملّة والدين والشرعة:

يقول الراغب⁽⁴⁾: الملّة كالدين، وهو اسم لما شرع الله تعالى لعباده

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/591.

(2) الاحتراس: أن يأتي التكلم بمعنى فيه دخل وطمع، فيُفطن له؛ فيأتي بما يزيل ذلك الوهم ويخلصه منه، ينظر القزويني، الإيضاح، ص: 192.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/695.

(4) الراغب، المفردات: (ملل).

نفي الولي
والنصير قطع
الطمع عن اتباع
الهوى

الاحتراس فن
بديعي، وضابط
علمي

على لسان الأنبياء؛ ليتوصلوا به إلى جوار الله؛ والفرق بينها وبين الدين أن الملة لا تضاف إلا إلى النبي الذي تُسند إليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: 78]، وقوله: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [يوسف: 38] الآية، ولا تُضاف إلى الله تعالى، ولا إلى أحد أمة النبي، ولا تُستعمل إلا في جملة الشرائع دون أحادها؛ فلا يقال: ملة الله، ولا يقال: ملتي، وملة زيد ... أمّا الدين إذا أطلق؛ فهو الطاعة العامة التي يجازى عليها بالثواب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19]، أمّا إذا قيّد؛ فتختلف دلالتة حسب السياق الذي ورد فيه، مثل: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: 4]، فهو بمعنى الجزاء والحساب.

المجيء والإتيان:

”والمجيء كالإتيان، لكنّ المجيء أعمُّ؛ لأنّ الإتيان مجيء بسهولة، والإتيان قد يقال: باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال: اعتباراً بالحصول“⁽¹⁾.

الولي والنصير:

الفرق بين الولي والنصير العموم والخصوص من وجه؛ لأنّ الولي يُطلق على القريب والحليف، أمّا النصير؛ فيطلق على كلّ من يُعين أحداً وعلى من يريد به ضرراً، وهذا قد لا يتأتّى من الولي، حيث يضعف عن النُصرة؛ بخلاف النصير فقد يكون من أقربائه أو من غيرهم.

وجاء التعبير بهما لقطع أطماعهم أن تُتبع أهواؤهم؛ لأنّ من علِم أنّه لا ولي له، ولا نصير ينفعه؛ إذا ارتكب شيئاً، كان أبعد عن ارتكاب المعصية في اتّباع أهوائهم، وفيه إشارة؛ لتبئس اليهود والنصارى أن يتّبع أهواءهم أحد.

(1) الراغب، للفردات: (جاء).

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني، سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2023م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم

الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2023.

مج. 2، 804 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 8-53-798-9948-978

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

مج. 2: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ-العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

التقييم الدولي: 8-53-798-9948-978

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984852 بتاريخ 2023/03/10م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»